الطابور

بعد رحلة التعب المضني، ها أنت قد استطعت أن تشق طريقك وسط الجموع المتزاحمة، على الشباك الحديدي الصغير الموصد، تتطاير الشتائم من الأفواه تتدافع الأجساد، موظف الجوازات يخرج من مكتبه، وهو يهدد ويتوعد، بصوتٍ عالٍ غاضب، يصيح في الجموع المحتشدة:

ـ لن أبدأ في إتمام الإجراءات حتى تنتظموا في صف واحد.

قابلوه في البداية بصلف وتحد، ثم انتظموا في طابور طويل، عيونهم مصوبة على الشباك الذي ما لبث أن أطل منه الموظف، وفي بطء وتثاقل شرع في قبول الجوازات، مسافر كان يقف خلفك، قتله التململ والوقوف، شعر بنفاد صبره انفجر يصيح بصوتٍ مرتفع:

ـ لنا أكثر من ساعة ونحن ننتظر، ما هذه الفوضى واللامبالاة؟ سرعان ما وصلت كلماته للضابط الجالس على

الكرسي الخشبي، الذي كان يراقب حركة العمل، وسط حرارة شمس يوليو الحارقة، التي تنتصب في كبد السماء.

استدعاه إليه، لا شك أن هذا الضابط قد أحس ما أنت فيه من استعجال، فها هو يطلبك، لعله يريد أن ينهي لك الإجراءات قبل الآخرين.

تفحصه الضابط بنظرة فاحصة، أرجعه إليه بعد برهة ونهره في غلظة وقسوة قائلًا:

ـ اغرب عن وجهي واذهب وقف في مؤخرة الطابور، حتى تتأدب مرة أخرى.

جرجر المسافر قدميه في دهشة وخيبة نحو مؤخرة الطابور.

قبل سفرك إلى هذا البلد النفطي، طبعت يومها قبلة على جبين أمك، التي ودعتك وهي تدعو لك، وفتاتك الجميلة، ذات الوجه المدور، هي الأخرى اغرورقت عيناها بالمدموع، عند وداعك بادرتها قائلًا:

ـ لا تحزني يا فتاتي فسأعود إليك مع الربيع القادم ومعي فستان عرسك ..

وودعت يومها قريتك التي تفوح من أزقتها الضيقة رائحة الفقر والجوع، ورياح القبلي، ارتحلت نحو الصحراء البعيدة، حيث الشمس اللافحة والفقراء دائمًا يرتحلون.

وبعد أيام وأسابيع من البحث الدائم والترحال، وقد أدمت الأرصفة قدميك، عثرت على عمل هناك في مصنع للطوب الأسمنتي.

ومع كل غروب شمس، كنت تأوي إلى تلك الغرفة الضيقة المسقوفة بالصفيح والألواح الخشبية، التي مضغها السوس .. وأنت متهالك ومتعب.

وتظل تحلم بتلك الغافية في قريتك النائية، تحلم بفتاتك الجميلة والبيت الوارف الظلال، وأنت تغفو على زندها، وتحكي لها عن ليالي الغربة والترحال والعرق الذي كان يغسل جسدك ..

ـ يا للوعة اغترابي عن عينيك يا جميلتي ..

أيقظك من شرودك موظف الجوازات ذو السحنة الترابية، وهو يهتف بك:

ـ أنت هيه أين جواز سفرك؟

سرعان ما مددت به إليه، التقطه منك ثم اختفى وبعد برهة عاد وهو يهتف باسمك، هززت رأسك مجيبًا ومددت له يدك فإذا به يفاجئك قائلًا:

ـ هذه وثيقة سفر قد انتهى مفعولها.

بادرته والدم يغلي في شرايينك:

ـ ليس لدي غيرها..

رد عليك ببساطة متسائلًا:

ـ ماذا أفعل لك؟

آه أيها الفظ الغليظ القلب لو تدري أن هذه الوثيقة كم دفعت عليها من مئات الجنيهات ...

توسلت إليه أن يختم لك التأشيرة، ويدعك تعبر عائدًا إلى أهلك المنتظرين أوبتك على أحر من الجمر، خلف تلك التلال البعيدة غير أنه قال لك من جديد:

ـ كيف أدعك وأنت ليس معك جواز سفر، أأنت أحمق أم ماذا؟

هممت أن تقول له أن يدعك تدخل إلى بلادك، ولن تخرج منها مرة أخرى، لكنه لم يدع لك فرصة للحديث وزجرك قائلًا:

ـ هيا دع المكان لمن هو بعدك ولا تصدع رأسي.

انسحبت تجرجر قدميك من الطابور الآدمي الطويل، دارت بك الدنيا وغابت المرئيات من أمام عينيك، صدمة قاسية لم تكن في الحسبان، أخذت تلعن حظك السيئ، ويومك التعس، غمغمت قائلًا:

ـ يالحزني وتعاستي وغيابي الطويل عنكم، ما أشد اشتياقي إليكم لكن ما باليد حيلة!